

تشارلز ديكنز

أوليفر تويست



رواية

لَبَّيْنَا مِنْ لَحْمِي وَدَمِي » . فَأَتْنِي الْمَوْظَفُ عَلَى عَاطِفَتِهَا الرَّقِيقَةِ وَحَنَانِهَا ثُمَّ قَالَ :
 — « تَعْلِمِينَ يَا سَيِّدَتِي أَنَّ ” أُولَيْقَر “ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمَرِ حَدًّا لَا يُسْتَسَمَحُ
 لَهُ قِيَمُهُ بِالْبَقَاءِ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، وَلَقَدْ قَرَّرَ مَجْلِسُ إِدَارَةِ الْمَلْجَأِ أَنْ يَسْتَعِيدَ
 الطِّفْلَ ، وَيُضَمَّهُ إِلَى خِدْمِ الْمَلْجَأِ ، وَهِيَ أَنَا ذَا قَدْ جِئْتُ أَنْفَذَ قَرَارَ الْمَجْلِسِ
 فَعَلَى بِالطِّفْلِ فِي الْحَالِ ! » فَهَضَمَتِ الْمَدِيرَةُ وَخَرَجَتْ مِنَ الْحِجْرَةِ وَهِيَ
 تَقُولُ :

— «أريد أن تصحبني يا "أوليقر"» فقال الطفل :

عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا أَظُنُّهَا تَمَانَعُ فِي رَحِيلِكَ مَعِيَ يَا «أُولَيْقُر» ، ثُمَّ إِنَّهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْزِلَ حِينَئِذَا بَعْدَ آخِرِ .»

المديرة قبل أن تحبسه في قبو الفحم والخطب ، فانهالت عبارته وأخذ يبكي ويستحب ، فطيبت المديرة خاطره ، وأوسعته قُبلاً ، ثم جاءته ببعض الحلوى حتى لا يصل إلى الملجأ وهو يتضور من الجوع . وسار الموظف بعد قليل بالطفل ، وخرجا معاً من تلك الدار التي قضى فيها « أوليفر » تسع سنوات مملوءة بالبؤس والحرمان ، ولم يأسف إلا على فراق صديقيه الطفلين اللذين ربطته بهما أواصرُ الشقاء .

على أن الموظف لم يترك له فرصة طويلة للبكاء والعويل ، فسَقَرَه بعضاه على أم رأسه نقرات خفيفة ، أعادت إليه ريقه ، وأمره بأن يتبعه ، فوصلا بعد قليل إلى حجرة واسعة رأى الطفل فيها عشرة أشخاص ضخماء قد جلسوا حول منضدة طويلة ، يتوسطهم رجلٌ أضخمُ منهم جميعاً ، مستدير الوجه ، منتفخ الأوداج ، قد جلس على مقعد أعلى من بقية المقاعد التي جلس عليها هؤلاء الرجال .

وفي مساء يوم من الأيام ، بلغ الجوعُ مبلغه من « أوليفر » ورفقائه الصغار ، فاتفقوا فيما بينهم على أن يختاروا واحداً منهم ليطلب من الطباخ مزيداً من الحساء ، حينما يجمعهم في غرفة الطعام ، ويوزع عليهم نصيبهم من ذلك القوت الذي لا يروى ولا يُشبع ؛ فوقعت القرعة على « أوليفر » فنهض يقدمُ رجلاً ويؤخر أخرى ، وحمل تصعته بيده ، وذهب إلى الطباخ وقال له وهو يرتجفُ من الخوف :

— « سيدى ! إن الطفل ” أوليفر “ قد طلب المزيد من الطعام ! »
فارتسمت على وجوه أعضاء المجلس عند سماعهم هذا النبأ ، أمارات

— « نعم يا سيدى ! » فقال الرجل ذو الصدر الأبيض :
— « ستكون خاتمة هذا الطفل حبل المشنقة . . . أجل ستكون
خاتمته حَبِيلَ المشنقة . . . »

وُنقِذَ قرار المجلس فَرَجَ « أوليفر تويست » في القبو المظلم ، وعُلِقَ على باب الملعج الإعلان الذي أراده مجلس الإدارة ، وانقضت أيام تسعة ، فلم يتقدّم أحدٌ لإعفاء الملعج من ذلك الصبي النّهيم الأكل . وفي اليوم العاشر ، جاء إلى الملعج رجلٌ طويلُ القامة ، نحيف البنية قويها ، مفنول العضلات ، عابسُ الوجه ، وكانت صناعة الرجل دفنَ الموتى وصنّعَ التوابيت ، فاستقبله موظف الملعج ، وتبادل وإياه التحية ، ثم خاضا معاً في الحديث عن الصبيّ « أوليفر تويست » فقَبِل

رَكَزَهَا إِلَى الْمَائِدَةِ وَطَقَّقَ يَقْلُبُ مَحْتَوَاهَا بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، وَعَيْنَاهُ تَقْدَحَانِ بِشَرَرِ الْجَشَعِ وَالْحَذَرِ .





فأعاد اليهودى العجوز السكّين إلى موضعها ، واستعاد لهجته العادية ،
وتظاهر أنه إنما كان يعبّث بالسكّين ليس إلا . . . فاقترّب من « أوليفر »
وقال له :

— « إنما أردتُ أن أخيفك يا عزيزى ، فإذا بك فى شجاع
يا " أوليفر " ولكن قل لى : أرايت شيئاً مما تحويه العلبة ؟ » فقال « أوليفر » :
— « نعم يا سيدى . »

فاصفرّ وجه اليهودى العجوز وصمت قليلاً ثم قال :
— « إنها ثروتى . . . إنها الثروة التى سأعتمد عليها عندما أظعن فى
السنّ ، وأبلغ من الكبر عتياً . . . يقولون لى شحيح بخيل ولكن مُكْرَةً
أخاك لا بَطْل . »

وسُمع عندئذ وقعُ أقدام على السلم ، وما هى إلا لحظات حتى دخل
الغرفة الغلامان « جاك » و « شرلو » فدعاهما اليهودى العجوز لتناول طعام
الإفطار ، وقبل أن يجلس القادمان إلى المائدة قال لهما العجوز :

— « لعلكما ذهبتما إلى العمل وعدتما منه بصيدتمين ! » فقال « جاك » :
— « عدت بمحفظتين متفختين بأوراق النقد وهاكهما . »
— « إنك بطل عظيم يا " جاك " ، وأنت يا " شرلو " بماذا عدت ؟ »
فقال « شرلو » :

— « بمجموعة من المناديل الثمينة . وأخرجها من جيوبه . »

وجلسوا جميعاً يتناولون طعام الإفطار ، ولما فرغوا منه شهد « أوليفر » اليهودى العجوز والغلامين يقومون معاً بحركات غريبة مضحكة ، فقد رأى العجوز يضع عُلْبَةً من علب لُفَافَات الدُّخَان في أحد جيوب سرِّوَالِه ، ويضع محفَظَةً في جيبٍ آخر ، ثم رآه يضع في جيب صدره ساعةً مربوطة بسلسلة ، ولا تَسَلُّ عن دهشة « أوليفر » عندما شاهد العجوز قد اعتمد على عصا ، وأخذ يحولُ منسكعاً في جوانب الغرفة ، كما يتسكع الناس الذين يمشون في الشوارع ، ولا عمل لهم إلا الفرجة والتنزه ، فتارةً كان يقفُ أمام الموقد ، وتارةً أخرى أمام الباب ، يحيل نظره فيه كأنه واجههُ حانوت من الخوانيت ، وطوراً ثالثاً كان يتفقد جيوبه كمن يخشى اللصوص والنشَّالين ، وكانت حركاته تلك من الغرابة بحيثُ أضحكت « أوليفر » وكاد يستلقي على قَفَاه من شدة الضحك . وكان الغلامان يتبعانه عن كَسْبٍ ، وكانا كلما التفت العجوز إلى الوراء تواربَا عن نظره بِخِفَّةٍ ورشاقة ، حتى تقدَّم أحد الغلامين منه ، وداسَ على رجله ، في حين صدمه الآخر من الخلف ، وبأسرع من تردُّد الطرف كان العجوز قد فقد كل ما في جيوبه : من عُلْبَةِ الدُّخَان والمحفَظَة والساعة ، حتى المنديل

— « تعال أعلمك كيف تنزع الأسماء من المناديل . . . ونحُدِّ هذا الشلن جزاءً مقدِّمًا على عملك . » فأذعنَ الغلام لأمر العجوز وانكبَّ على عمله بهمة ونشاط ، ولم يخامرهُ أى شك من الشكوك وبقي « أوليفر » عدة أيام لا يغادر المنزل ، أو لا يُسَمِّحُ له بمغادرة المنزل ، حتى ضاق صدره واشتاق إلى الحرية والفضاء الواسع ، وكان اليهودى العجوز قد عهدَ إليه فى نزع الأسماء من كمية كبيرة من المناديل ، لم يدِرِ « أوليفر » من أين تهبط عليهم ، وكان قد أشركه أيضًا فى اللعبة





والحنان، فهل تشبه أحد في أسرة هذه الدار يا سيدتي؟» فقالت المدبرة العجوز:

— « لا یا عزیزى » . فقال « أولیقر » :

— « إن عينيها تفصحان عن الكآبة، ويخيلُ إلى أنها تحدِّق إلى

وتريد أن تكلمني » . فقالت المدبرة :

— « لا تجهد نفسك فيما لا طائلَ تحته يا ولدي . . . »

وفي هذه اللحظة دخل السيد « براون » واقترب من سرير « أوليفر »

مستفسراً عن صحته فقال له « أوليقر » :

— « أرجو ألا تكون مستاءً مني يا سيدى ! » فضحك السيد

« براون » ولاحت منه التفاتة إلى صورة الفتاة المعلقة على الحائط ثم وزع

نظراته بينها وبين « أوليقر » فقال يخاطب مدبرة المنزل :

— « يا لله من هذا الشَّيْبَةِ الغريب !... » ثم انصرف مسرعاً فقد

حرکت الصورة فی نفسه لواعج الشُّجون .



عاد « جاك » و « شرلو » إلى منزل اليهودي العجوز ، فلما رآهما اثنين لا ثالث لهما . احتدم غيظاً وصاح فيهما قائلاً :

— « أين ” أوليفر “ ؟ »

فجَزَع الغلامان من منظر ذلك الوحش الجاحظ العينين ، والتَّسَرَّما الصَّمت ، فانقضَّ اليهوديَّ العجوز على « جاك » وأمسك بتلابيبه وقال :
 - « ماذا جرى له ؟ » فقال « جاك » وقد استردَّ بعض وقاحته وشجاعته :
 - « لقد وقع في الفخ . . . ولكن هلاَّ تركتني أتنفَّس ؟ ! » .
 فلسوى صوت العجوز هائجاً مزججاً وهو يقول :
 - « أيُّها الشقي . . . »

وجرى اليهودى العجوز والغلامان وراء « أوليفر » وهمَّ « سيك » بأن يُطلق كلبه وراء الهارب ، فحالت الفتاة « نانسى » دون ذلك ، ووقفت بينه وبين الكلب وهى تقول :

— « لا . لن يخرج الكلبُ من هنا ! حرام عليكم تعذيب هذا الغلام المسكين ! »

فانقضَّ « سيك » عليها ودفعها عن الباب دفعةً قويَّةً رمتها في زاوية من زوايا الغرفة ، فنهضت تريد أن تثأل لنفسها من « سيك » ، ولكنَّ الباب فُتِحَ في تلك اللحظة ، ودخل منه اليهوديُّ العجوز والغلامان ، وهم يدفعون أمامهم « أوليفر » ، فنظرت إليه « نانسي » فرأته صاحبَ الوجه مرتجف الأوصال ، فاستيقظ فيها الضمير الحَيُّ ، وندمت أشدَّ الندم على الجريمة التي ارتكبتها في إعادة « أوليفر » إلى هذه البؤرة من الفساد والصوصية .



— « أكنت تريدُ الهربَ فجتمع علينا رجال الشرطة والجيران أيُّها
الحقير ؟ ! »

— «لَوْلَمْ أَكُنْ حَقِيقَةً بِهِ لَمَّا جَاعَنِي . . . وَعَلَامَ يَشَى الْإِنْسَانُ وَيَتَعَبُ إِذَا هُوَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْصَلَ عَلَى الْمَالِ عَنْ طَرِيقِ هَيْئَةٍ سَهْلٍ ؟ ! » فَقَالَ «أُولَئِكَ» :

فقهقه « جاك » و « شلرو » معاً من سذاجة « أوليفر » وسلامة طويته ، ودخل عليهما اليهودي العجوز وهما يضحكان ، فأنهياً إليه بحديثهما وحديث « أوليفر » فأمن على كلامهما ، وأخذ يقصّ على الغلمان أنباء بطولته في أيام الحداثة والشباب ، وكيف كان يتفنّن في النّشل والسّرقة حتى جمع ثروته . وكان هذا العجوز منذ صباح الليلة التي أعيد فيها « أوليفر » إلى وكر اللصوص قد أخذ يتلطّف في حديثه مع « أوليفر » ويغمره بعطفه ورعايته ، ويقدم له أطيب ألوان الطعام ، ويسرد على مسمعه العظة تليو العظة في محاسن السّرقة ، وما تجلبه على السّارق من رفاة العيش ورغده ، ولكن « أوليفر » كان يُعيره أذنًا صماء ، ويتربّ اليوم الذي يستطيع فيه أن يهرب من ذلك اللحيم ، ولكن هيهات ! فقد كانت الحراسة شديدةً عليه حتى لو أراد أن يكرر بالعجوز ، ويتظاهر بقَبُول عَرْضه وإغرائه .

— « اَتَصْبِحَنَّ رَجُلًا عَظِيمًا لَوْ ضَمَعْتَ نَصْحِي وَعَمَلْتَ بِإِشَادِي! »
فَقَالَ لَهُ « أُولَئِكَ » مُتَوَسِّلًا :

– « أنصحك بأن تكون رهن إشارة الفتى ” سيك “ وأطوع له من
بنائه ، فهو كفيل بأن يدربك خير تدرب » .

— « اتركنا وحدنا قليلاً يا ولدى ، واقتضِ بعضَ الوقتِ في الغرفة الملائقة ، ولا تطمع في الهرب فأنت تعلم أن ليس لها من منفذٍ غير هذا الباب الذي تراه في أقصى هذه الغرفة . »



— « لقد أكرهتُ على المجيء إليك واصطحباك ... انظر إلى مِعَصَمَتِي وعنتي تَجِدُ آثار الضَّرْب فيها ... إن حياتك وحياتي في خطر لو سمع هذا الحوذي حديثي معك ... فاصبر ولا تيأس من رحمة الله ، فلعل ساعة خلاصك من أيدي هذه الطَّغْمة الشريرة قريبة غير بعيدة » .

والتزمت «نانسى» والغلام الصَّمَتَ بعد ذلك ، وجرت بهما المركبة فى أزقة حَقيرة حتى وصلت إلى منزل زرى فى أحد الأزقة فوقفت عنده ، فترجلت «نانسى» وهى ممسكة بيد «أوليفر» ودخلت المنزل فإذا «سيك» واقفٌ ينتظرهما ، وهو مقطَّبُ الحاجبين ، عابسُ الوجه ، فابتدر يخاطب «أوليفر» قائلاً :

— « لماذا تأخرت أيُّها الغلام البليد ؟ » فقال « أوليفر » خائفاً :
 — « لم نتأخر ياسيدي فشقة الطريق واسعة ، ولقد قطعناها بنا
 المركبة دون أن نعرِّج على مكانٍ من الأمكنة » .
 فقال « سيك » والغضب لا يزال مرتسماً على وجهه :

— « حسن ... ها هي ذى المائدة مُعدَّة وحافلة بما يشتهي الإنسان من الأطعمة اللذيذة ، فاجلس إليها وتناول عشاءك معنا ، وعندما تفرغ من الطعام فانطرح على ذلك السرير الذى تلقاه فى زاوية الغرفة ، وخذ نصيبك من النوم فسوف نستيقظ مبكرين جداً ، ونغادر المنزل فى الساعة الخامسة ... »



على مقربة من أحد الجسور ، فترجل الحوذى وترجل بعده « سيك » و « أوليقر » ثم أشار « سيك » إلى الحوذى إشارة خاصة ، وأمسك بيد « أوليقر » وسار به في خُطى واسعة ، فاشكّ الغلام المسكين إلا أن رفيقه الظالم قد جاء به إلى هذا المكان ليغرقه في النهر ، ويتخلص منه في هذا المكان البعيد ، فلا يقف أحد على جريمته ، فارتعدت فرائصُ الغلام عندما جالت بخاطره هذه الفكرة ، وازداد يقينه بالخطر الداهم حين رأى « سيك » لا يجتاز به الجسر ، بل ينزل من أحد جانبيه إلى مستوى النهر ، فبدأ له أن يصيح مستغيثاً ، ولكن تذكر المسدّس في جيب غريمه ، ووازن بين الموت قتلاً بالرصاص أو غرقاً في مياه النهر ، فأثر الصمت مستسلماً لمشية الله ، منتظراً مصيره المحتوم .

وصل « سبك » به إلى حافة النهر ، ولكنه لم يَسْرِمْ فيه كما توهم ؛ بل سار به في دَرَب ضيقٍ متعرج ، حتى بلغا كوخاً من الأكواخ مُقاماً على جانب النهر ، فتنفَّس « أوليفر » الصعداء لما رأى « سبك » يطرقُ باب الكوخ طوقاً خاصاً ثم يَفْتَحُ الباب ويدخل منه إلى الكوخ ، ويستقبله فيه رجلان تبعثُ سَحَنَتَهُمَا بالبُشعة بالدُّعْر في القلوب ، ويقول له أحدهما وهو يشير إلى « أوليفر » : « مَنْ هذا ؟ »

فأقبل « سيك » على الرجلين يحدثهما حديثاً خافئاً ، فبدت على الرجلين علاماتُ الطمأنينة ، بل لعلَّ وجود الغلام قد سرَّهما ، ثم دَعَوَا

◀◀◀◀◀◀◀◀◀ 74 ▶▶▶▶▶▶▶▶▶▶

جرت المركبةُ بالمسافرين جَرَيًّا حَثِيثًا حتى انتصف النهار ، فوقفت عند باب مَطْعَمٍ من المطاعم ونزل « سيك » منها وجرَّ معه « أوليفر » ودخلا المطعم ، فتناولوا فيه طعامَ الغداء ثم دخن « سيك » عدة لفافات من التبغ ، ثم خرجا واستقلّا المركبة فتابعت بهما السير إلى حيث يقصدان بل إلى حيث يقصد « سيك » فما كان « أوليفر » لِيَدْرِيَ كما علمنا إلى أين ستنهى بهما خاتمة المطاف ، ولا كان يدري الغرض من هذه الرحلة .

واستمرت المركبة تجرى بهما حتى توارت الشمس وراء الأفق ،
وبدأ المساء ينتشر على الأمكنة والبِقاع ، وعلى حين فجأة وقفت المركبة

66

وبعد مسير ساعة من الزمان، وقفت المركبة وفزل منها الراكبون وساروا قُدُمًا بين المزارع حتى وصلوا إلى منزل، جميلٍ تامٍ في وسط حديقة غناء، يحيط بها سورٌ قليلُ الارتفاع، فوقف الرجال الثلاثة عند جانب من جوانب السور، وأخرج «سيك» مسدسه وسدّده إلى صُدُغ «أوليقر» وهو يقول له همساً: «تذكّر وحذار». ثم تسلّق أحد الرجلين السور وهبط منه إلى الحديقة، ورفع «سيك» الغلام وقذف به إلى الحديقة، فتلقاه الرجل الذي سبقهم إليها، ثم لحق به «سيك» والرجل الآخر، ومشى الرجال الثلاثة والغلام في خطوات خفيفة إلى أن بلغوا باب المنزل، متسترين

وقف أحد الرجلين مستنداً إلى الجدار وعاون الرجل الثاني على أن يرتفع إلى كتفيه ، فلما استقرّ عليهما بلغ الكوة فأخذ يُعالجُ بابها بما في جيبه من أدوات حتى فتحه ، وهنا اقترب «سيك» من «أوليقر» ورفع بهما بكلتا يديه ، وقذفه إلى الرجل الذي فتح باب الكوة ، فتلقاه بيده اليمنى ، في حين أمسك باليسرى حافة الكوة حتى لا يسقط ، وبعد أن استعاد توازنه ، دفع بالغلام إلى مدخل الكوة ولكن ... لمع في المنزل على حين غرة ضوء مصباح أعتبّه طلق ناري ستط «أوليقر» على أثره مرتجياً إلى الحديقة ، فتلقفه «سيك» ثم علا الضجيج في المنزل ، فلم يَسعَ للصّوص

إلا الهرب ، فتسلّقوا سور الحديقة ولاذ الرجلان بالفرار ، أما « سيك » فكان أبطأ منهما حركة ، لأنه كان يحمل « أوليفر » مغشياً عليه .

وشعر « سيك » بعد قليل أن سكّان المنزل قد غادروه إلى مطاردتهم ، فأصواتُ الناس ونباحُ الكلاب تمزق سكّون الليل ، وتصلُّ إليه فتحدوه على الإسراع في الهرب ، ولكن كيف السبيل إلى الفرار وهذا الغلام المغنى عليه يعوقه عن الركض والابتعاد عن المطاردين ؟ !

وزاد في قلقه وحسّته سماعه دوى عجلات المركبة التي كانت تنتظرهم ، فعلم أن زميله قد استقلّاها وهربا بها . وبينما هويجرى على غير هدى ، عثرت رجله فوقع في حفرة فتدارى بها هو والغلام ، على أمل أن يستأنف الهرب عندما تخفّ وطأة المطاردة ، وحينما وضع « أوليفر » في أرض الحفرة لحظ أن ذراع الغلام اليسرى يسيل منها الدّم ، فأدرك أن الطلّق الناري قد أصابه دونهم جميعاً ، فأخذ الشّال الملفوف على عنقه ، وربط به جرح « أوليفر » ربطاً محكمًا فنتعه من النزيف ، وقضى ساعات طويلة في ذلك الحجاب ، لا يستطيع الخروج منه . وكان كلّما همّ بمغادرته طقت مسمّعة أصواتُ المطاردين فقَبَعَ فيه ، وعندما بدأت خيوطُ الفجر تلوح في الأفق ، نظر إلى وجه « أوليفر » فرأى جفونه تتحرك كالمستفيق من نومه أو غيبوبته ، فقال في نفسه : إن هذا الغلام سيعوقني عن الهرب ، وجرحه علامةٌ مميزةٌ تلفت الأنظار إلى في هذه البقعة ، فقرّر أن يتركه

ويرحل عنه ففعل .

وطلّع الصباح من خلال الغمام الذي كان يملأ السماء ، فأفاق « أوليفر » وهو يرتجف من البرد ، وكان لا يزال خائرَ القوى ، فاستغرب من وجوده في تلك الحفرة ، فتحرّك قليلاً من موضعه ، فاشتدّ عليه الوجع ، فتحسّس ذراعه اليسرى فإذا هي تنزف دمًا من ثنايا رباطها المحكم ، فصاح متألمًا وبقي يزفر ويتنهد حتى طلعت الشمس ، فاستجمع قواه وخرج من الحفرة ، وأخذ يُجِيل الطّرف فيما حوله ، فلم يعرف أين هو ، فشى بين المزارع لعله يجد أحداً يستنجده ويُعنى بجرحه ، وظلّ يمشي متحاملًا على نفسه إلى أن لاح له منزلٌ قريبٌ محاطٌ بحديقة مسورة ، فقام في ذهنه الصغير أنه يعرف هذا المنزل وتلك الحديقة ، ولكنه لا يذكر متى رآهما ، فسار إليها يتعثر مرّةً وينهض أخرى ، فوصل إلى باب الحديقة وكان مفتوحًا ، فدخل منه ومشى إلى باب المنزل وهو يكاد يقع من شدة الألم والإعياء ، فما إن يحدّق إلى المنزل وإلى الكوة التي في أعلى الجدار ، حتى ينجلي له الموقف ، ويتذكر حوادث الليلة الماضية ، ويعلم أنه المنزل الذي حاول اللصوص سرقة معتمدين عليه في غرضهم الأثيم ، ففكّر أن يعود على أعقابهِ هاربًا لثلاثيَّتهم بجريمة السرقة ، ولكنه سقط مغشياً عليه عند الباب .

وكان سكّان المنزل يتألفون من أرملة عجوز وصبيّة حسنة ومن طبّاخ



— « إِنَّمَا نَتَحَدَّثُ عَنْ هَذَا الْغَلَامِ تَحَدُّثَ الْمُقْتَنِعِ بِجُرْمِهِ ، فِي حِينَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ بَرِيئاً ، وَنَفْسِي تَحَدَّثُنِي أَنَّهُ بَرِيءٌ . . . »

فودّع الطيب الفتاة والسيدة الأرملة ، ووعد بالعودة بعد ساعات قلائل . ولم يكد الطيب يتعد من المنزل حتى أقبل رجالُ الشرطة يحققون في حادث السَّطو ، ويعاينون الأمكنة ، ويستجوبون سكان البيت ، ولمّا أرادوا أن يدخلوا حجرة «جيل» تصدّت لهم الفتاة وأخبرتهم أن فيها غلاماً جريحاً جاءهم في هذا الصباح مستغيثاً مستنجداً ، فاستدّعو له الطيب وحاله الآن تَنْذِر بالخطر ، ثم بيّنت لهم الفتاة أنها لا ترى صلاةً من الصّلات بين هذا الغلام وحادث السَّطو ، فسيئنه لا تحمِلُ على الظن أنه من اللصوص الذين يَسْطُون على المنازل ، ولو فُرضَ المستحيل وكان مِسْئِ سَطَوْاً على منزلنا لما جاء إلينا يسعى عن حَتَفِه بظُلْفِيهِ . . .

فَوَثَّقَ رِجَالُ الشَّرْطَةِ بِكَلَامِ الْفَتَاةِ ، وَعَدَلُوا عَنْ اسْتِجَابِ الْغُلَامِ ، وَلَكِنْهُمْ اشْتَرَطُوا عَلَيْهَا أَنْ يَكُونَ رَهْنُ الْعَدَالَةِ إِذَا مَا بَدَأَ لِلْقَضَاةِ أَنْ يَحْقُقُوا أَمْرَهُ وَيَسْتَجِيبُوهُ ، فَعَاهَدْتَهُمْ عَلَى ذَلِكَ .

ومكث « أوليفر » عدة أيام طريح الفراش وصريع الحمى ، ولم يدخر الطبيبُ وسعاً في معالجته ، ولا توانت الفتاةُ الحسناء واسمها « وردة » عن مداراته والعطف عليه ، حتى فارقت الحمى وأخذ البرء يتمشى في جسده السقيم الناحل . ويوم استطاع أن يستوى في سريره متمائلاً للشقاء ،

— « أودُّ من صميم الفؤاد لو مات برداً أو جوعاً أو برصاصة عابرة، حتى ترتاح نفسه من حياة الإحرام التي يحياها . أما الغلام فكان الله في عونهِ وأنقذه من مخالبك وبرائتك » . فصاح فيها اليهودى العجوز :

— « دَعَيْ عَنكَ هذا الرِّياء... فأنتِ و"سيك" تعلمان حقَّ العِلْم أن لهذا الغلام قصّة، وأنّى سأجْنِي من وراء تلك القصّة مئات الجنيهات إذا أنا قمتُ بأمرٍ معيّن... فإن أخفيته عني فالويل لكما من انتقامي.. »

وتركها ذاهلةً مدهوشة ممّا سمعت ، وانصرف يقضى الليل في منزله الثاني . وفي مساء اليوم التالى زاره هذا الذى يدعى « مونك » ولئن لم يظهر إلّا الآن في سياق روايتنا هذه ، لقد كان على صلة باليهودى العجوز ، يتقابلان سرّاً ويتآمران معاً على الغلام « أوليفر » فأما تقابلا وجههما لوجه قال اليهودى العجوز بصوت ملؤه الحسرة والأسى :

— « لقد أخفق التّدبير الذى دبّرته ، وعاد أفراد العصابة خاسئين » .

— « إنك تصرّفت تصرّف البلهاء ثم ما لنا وإشراك الغلام في حادث سَطُو ؟ أما كنتَ تستطيع أن تجعل منه نَشْئالاً فقط ... كان ذلك يكفيني ! » فقال اليهودى العجوز :

— « كلا . لم يكن من السّهّل حَمْلُهُ على النّشَل ، فهو غلام ذكى عنيد ، لا يفعل إلّا ما يريد ... ومنذ اليوم الذى جئتني فيه تخبرني أن هذا الغلام هو ضالّتك المنشودة ، وأنا أجهّد في تنفيذ ما اتّفقنا عليه ... »

وزاد في تعبّي وإرهاق أن الفتاة " نانسي " أصبحت تدافع عنه ... »

— « ولماذا تُبْقِي عليها ؟ اختفها ما دامت تعرقل خطّتك ... ولكن حذار على حياة الغلام فوته يسبّب لى المتاعب ، ولا بدّ أن تُعرّفَ صلتى بالحادث فأفقد كل شيء ... أريده أن يصبح وغداً سافلاً لصّاً ... هذا كل ... » وتوقف فجأة عن الكلام ، وتشبّث باليهودى العجوز وهو يقول له في ذعر واضطراب :

— « لقد لحث خيال امرأة يتلصّص علينا ويتنصّت إلينا ... »

فهدأ اليهودى العجوز من رَوْعهِ ، وأكّد له أن ما من مخلوق رجلاً كان أم امرأة يحسر على تخطي عتبة باب المنزل إلا أن يكون من زُمرة العصابة ، وهؤلاء لا يتلصّصون ولا يتنصّتون ، بل يدخلون ترواً حيث يكون . فلما لم يقتنع « مونك » بمنطق العجوز ، شاء هذا أن يُشَبّث له صحّة ما يقول ، فأخذ المصباح وجال و « مونك » في أنحاء المنزل غرفةً غرفةً ، فما لحا آثار إنسان ، فانصرف « مونك » ونفسه فريسةً للهواجيس والوساوس .

وظهر « سيك » بعد أيّام ، فما استطاع أن يخبر اليهودى العجوز بمصير « أوليفر » ولا استطاع أن يهدّي من نائزته ، ثم انقضت عدّة أسابيع وما من نبأ عن الغلام ، وكان اليهودى العجوز كلما خلا إلى نفسه طار فكره إلى الغلام « أوليفر » وودّ لو عرف مقرّه فجند له الإنس والجنّ يختطفونه ويعيدونه إليه ، حتى لا يفقد المبلغ الضخم الذى وعده به « مونك »



مقابلَ إفساد الغلام ، ولكن أننى له الرّجْم بالغيب ليعلم أن « أوليفر » سعيدٌ كل السَّعادة فى ضيافة الأسرة التى آوته ، وأنه يشغل نهاره بصيد العصافير وسقّى الأزهار وتسلّق الأشجار .

وأقبل « أوليفر » ذات يوم على الأنسة « وردة » وقال لها :

— « في صدرى كلام أريد أن أفضى به إليك يا آنسة ، ولكنني أخشى أن تسهميني بالعقوق وإنكار الجميل » . فقالت « وردة » مبتسمة :
— « قل ما بدا لك يا عزيزي ” أوليفر “ ولا تخش بأساً ! » فقال « أوليفر » :

— « وددتُ لو علم ذلك المحسن الرقيق الفؤاد السيد "براون" ومدبرة منزله التي عطفت على ورعتي ، أننى مقيمٌ عندكم سعيدٌ بضيافتكم » .

— « ما أطيب عنصرِكَ يا "أوليفر" وما أنبل شعورك ! أنا لا أشك فى أنهما سيغبطان لاغتباطك ، فاعلم أن الطبيب الذى عاجلك قد وعدنا أن يصحبك إليهما فى يوم من الأيام » .

ولم يطل انتظار « أوليفر » لليوم الموعد فقد جاءه الطبيب بعد أسبوع ، واستقلّ معه مركبة الأسرة ، وذهبا يزوران السيّد « براون » ولكنهما عادا من رحلتها والأسى يملأ قلب « أوليفر » فقد وجدا المنزل خلوّاً من السكان ، وعليه لافتة للإيجار ، وعلما أن السيّد « براون » ومدبرة منزله قد رحلا منذ أربعة أسابيع إلى بلاد الهند الشرقية .



وأخرجت من جيبها كيساً صغيراً من الجلد ، ووضعتة على المنضدة
فاختطفه « مونك » وفتحته بيد مضطربة فإذا فيه خاتم زواج وحلية ذهبية
على شكل قلب تحتوي على خصلتين من الشعر ، وقد كتب على الخاتم
اسم « أنيس » دون ذكر لاسم الأسرة ، وحفر عليه تاريخ يرجع إلى
قبل مولد الغلام بسنة واحدة ٥

وكان « بميل » في أثناء ذلك تتنازعه عواملُ عدّة وهو صامت لا يتحرك ولا يتكلم ، فلماً رأى بأمّ عينه تلك النتيجة اطمأنّ بالأمر على حياته وحياة زوجته من انتقام الرجل ، وضمن الاستئثار بالمبلغ الذي قبضته زوجته . وسكت الثلاثة قليلاً ، ثم قطع « مونك » حبّلاً الصمت وقال :

— « سأريكما على الفور مصير هذه الحلية » :

وعمدَ إلى زاوية من أرض الغرفة فضغط بيده على مُربّع خشبيّ ،
وللحال انخفض من وسط الغرفة مُربّعٌ كبيرٌ ، فسُمع تحتَه جُريانُ الماءِ ،
وكان المنزل قائماً على حافة النهر ، ومتّصلاً به بمجرى من الماء ، فقال
« مولك » :

— « كان في استطاعتي أن أفعلَ هذا الذي فعلتُ عندما كنتم جالسَين فوق المربع الذي انخفض الآن ، فذهبا إلى أعماق النهر جثتين هامدتين ، أما وقد تبَيَّنْتُ صدقكما ، فالمرءة تتقاضاني أن أبقيَ عليكما ، وسأؤلف



كان الليل قد انتصف عندما دخلت الأنسة « وردة » غرفتها ، والاضطرابُ يقيمها ويُقعدها ، فقد سمعت من الفتاة « نانسي » أشياء أذهلتها وعصفت بقلبها ، فاستلقت إلى سريرها لعلَّ النوم ينقذها من ثوران نفسها وقلقها البالغ ، ولكن هيهات . . . استعرضت في خاطرها الأشخاص الذين تستطيع أن تبوح لهم بذلك السر الخطير ، فاقرَّ قرارُها على واحدٍ منهم فبدأت أولاً بطبيب الأسرة ، وكان في ضيافتها ، فقد دعته أن يصحبهم إلى أحد شواطئ البحر ، وكان السفر مُقررّاً بعد يومين ، فلم ترتج إلى مباحثته بهذا الأمر لما تعرفه من طبعه الجلف ، فسوف يرى في كل هذا أضغاث أحلام ، وتذكرت فتى يدعى « هنرى »

هو ابن الخالة التي تعيش معها ولكنها ترددت في استدعائه إليها لأسباب عاطفية لا تريد إثارتها ، فما زال الفكر يطرحها كل مطرَح حتى غلب عليها الشَّعاس والتعب فنامت . ونهضت في الصباح مهمومة : وعادت إلى تفكيرها وقضت فيه ساعة أو ساعتين ، وإذا بالغلام « أوليفر » يدخل عليها مضطرباً وكان قد عاد من نزهة في شوارع « لندن » صحبه فيها « جيل » فحنَّت إليه « وردة » وقالت :

— « مابك يا "أوليقر" ؟ ما هذا الاضطراب ؟ » فصاح وهو يسنهت:

— « عزيزتي ! ... لقد رأيته ... نعم رأيْتُ ذلك الكريم الذي كان قد استضافني عنده ... رأيْتُ السَّيِّدَ ” براون “ ... »

— « وأين رأيتَه ؟ »

— « رأيتُه في أحد الأحياء وقد نزل من المركبة ودخل المنزل ، فغلبنى الاضطراب فلم أستطع أن أُهرعَ إليه ، غير أن ” جيل “ قد سأل عنه فعلم أن هذا مسكنه وإليك العنوان . » ودفع « أوليفر » إليها بورقة كتب فيها عنوان السيد « براون » فقرأتها وقالت :

— « سأصحبك يا ”أوليفر“ إلى هذا السيد الكريم ، ولكن أمهلني قليلاً من الوقت حتى أرتدى ثياب الخروج ، وأخبر خالتي بأننا ذاهبان إليه » .

وما هي إلا دقائق معدودات حتى كانت الأنسة « وردة » و « أوليفر »

وسرّ اليهودى العجوز أن يرى « سيك » يستخدمُ سُلْطانه على الفتاة ولو بطريقة وحشية ، فقد كان منذ تصدّت للدّفاع عن الغلام « أوليفر » تخامره الظّنون فى إخلاصها للعصابة فقام وحيّاً « سيك » وشفع تحيته بنظرة أقرّه فيها على عمله وعدوّانه ، وقفل راجعاً إلى منزله

وقضى «وليم» ستة أيام مسمراً في مكانه على مقربة من منزل «نانسى»، متكرراً في زى حَمَال ، فذهبت مراقبته سدّى ، فلما خرجت الفتاة من المنزل ولا حتى أطلت برأسها من إحدى النوافذ ، وفي اليوم السابع وكان يومَ أَحَد ، شهد «سيلك» يخرج قُبَيْلَ العصر ، ويسير في عكس الشارع الذى كمن فيه ، وهو مطرقُ الرأس مشغولُ الذهن ، فلعم

1.7

ودامت المطاردة نحو خمس وأربعين دقيقة ، وصلت « نانسي » بعدها إلى جسر « لندن » فوقفت قليلاً تجيلُ بَصَرَهَا في أطرافِ الجسر ، باحثةً مدققةً ، كأنها على ميعاد مع بعض الأشخاص ، واستطاعت أن ترى في ذلك الظلام الدامس رجلاً وامرأة واقفين عند منتصف الجسر ، ومستندين إلى درابزونه يحدّقان في كلٍّ من يجتاز الجسر كأنهما هما أيضاً على موعدٍ مع أحدِ القادمين . ولم تفت الحاسوس حركات الأشخاص الثلاثة ، فتبع « نانسي » مسرعاً واقترب منها عندما رآها قد وصلت إلى المرأة والرجل وسمعا تقول لهما :

◀◀◀◀◀◀◀◀◀◀ 1.7 ▶▶▶▶▶▶▶▶▶▶▶▶▶▶▶▶

وخلّا اليهودى العجوز إلى نفسه يعمل الفكر فيما سببته له « نانسى »

— « سأبرهنُ لك على أني لستُ الكذَّابُ الأشرُّ ، وسأجعلك تقتنع



أن "نانسى" ستُودى بنا جميعاً إلى التَهْلُكَة . . .

وانقلت إلى الغرفة المجاورة ، وأيقظ جاسوسه ، ثم جاء به وهو يفرك عينيه من شدة النعاس ، وقال له بلهجة الأمر النَّاهى :

— « قل لصديقى "سيك" كل ما أخبرتنى به عن "نانسى" وعن أحاديثها مع من لقيتهما الليلة تحت جسر "لندن" ولا تُخَفِ منها حرفاً واحداً » . فكرر الجاسوس الرواية التى كان رواها لليهودى العجوز ، فلم يكذب ، يصل إلى نهايتها حتى استدار « سيك » على عَقْبَيْهِ ، وخرج مسرعاً ، قاصداً منزله ، فوجد « نانسى » تغطّى فى النوم ، فأيقظها بجفء وغلظة ، وشدّ عليها التَّكْبِير فى السؤال والاستجواب ، فما ردت عليه بجواب تقتنع به نفسه ، فوثب إليها وثبة الذئب الغادر ، وشدّ على عنقها بيديه الأثيمين حتى فاضت روحها وانقلبت جثّة هامدة . . .



غربت الشمس ذات مساء ، فوقفت مركبة من مركبات الأجرة عند دار السيد « براون » فنزل هذا منها ، ونزل بعده رجلان بل عملاقان ، وهما قابضان على ذراعي رجل ثالث ، فأدخلاه عنوة إلى المنزل . ولم يكن هذا الرجل الثالث إلا « مونك » .

دخل « مونك » المنزل مكرهماً ، وقاده السيد « براون » إلى مكتبه
ثم قال يخاطب العمالقين الواقفين إلى جانبه :

— « اترکانا وحمدنا ، وقفنا عند الباب وكونا على مسمع من صوتي » .
فنفذ الرجلان أمر « براون » فما كادا يخرجان حتى قال « مونك » :
— « يدهشني يا سيدي وأنت صديق قديم لوالدي ، أن تعاملني

في التاسع عشر من ربيعها ، والثانية لم تكن سنّها تتجاوز السادسة ...
وبعد سنة واحدة من ذلك التعارف أحب والدك الابنة الكبرى وأحبته
ووعدها بالزواج . . . »

— « وتوفى في هذه الأثناء بمدينة "روما" نسيب شيخ تاركاً لوالدك كل ثروته ، فسافر إلى "روما" وأصيب هناك بمرض عضال ، فلهقت به والدتك وكانت تقطن "باريس" وصحبتك معها إليه ، فتوفى والدك غداً ووصلكما إلى المدينة ، ولم يترك له وصية فعاتت الثروة كلها إلى والدتك وإليك » .

— « وقبل أن يرحل والدك إلى " روما " جاء يزورنى ، وترك عندى صورة كان قد رسمها هو نفسه لشقيقته التى كنت سأ تزوجها وكان الألم والندم قد هدا ركنه ، وأخبرنى أنه ارتكب وزراً ثقيلاً يلطخ بالعار سمعة أسرة كريهة ، وأنهى إلى أنه سيصفى ثروته وميراثه ويحولها إلى مال سائل ويترك لك ولوالدتك جانباً منه ثم يهجر البلاد إلى مكان بعيد ، ثم وعدنى بأن يكتب إلى ويطلبنى على جميع أعماله . . . ولكنه لم يفعل وكانت زورته لى هى بيننا اللقاء الأخير . . . »

— « على ريسليك ... سأتم حديثي وإن كنت لآنجهلُ ما سأقول ...
تعرف والدك إلى ضابط أرمِل كان له ابنتان إحداها جميلة كالصباح

فلم يَسْعَ « بمبل » وزوجته إلا الإقرار، وهما مستنكران خيانة « مونك » فسُمِحَ لهما بالانصراف . وشكر « براون » للعجوزين الطَّاعَتَيْنِ في السنَّ شهادتهما الثمينة ، وأوصلهما إلى الباب مودِّعاً ، ثم عاد وأمسك بيد الأنسة « وردة » وقال يخاطب « مونك » :

— « أتعرف هذه الأنسة ؟ » فقال « مونك » :

— « نعم أعرفها . إنها شقيقة "أنيس" : فبعد موت أبيها، وهَرَبَ أختها الكبرى ، احتضنتها أسرة فقيرة من الفلاحين ، ثم لقيتها اتفاقاً هذه السيدة الحاضرة بيننا فأعجبت بها ، وطلبت إلى تلك الأسرة الفقيرة أن تنزل لها عنها وهكذا كان ... » فصاحت السيِّدة الوقور مقتربةً من « وردة » :

— « هي عندي أعزُّ من ابنة شقيقة ، بل أعزُّ من نفسي ، ولن أفقدها ! » فقالت « وردة » :

— « لقد كنت لي يا سيدتي أمّاً بَرَّةً رؤوماً ، فلن أنسى فضلك ما حييت ! » واقترب « أوليفر » من « وردة » وقال لها وهو يعانقها :

— « أمّاً أنا فلم تكوني لي خالة فقط ، بل كنت شقيقةً عزيزةً حبيبة ... »



الخاتمة

وجرت خاتمةُ أشخاص هذه الرواية على ما يقضى به الحق والعدل والإنصاف ، فحكيمٌ على « سيك » وعلى اليهودى العجوز بالشَّنق ، قِصاصاً لهما على ما ارتكبا من آثامٍ وجرائمٍ ، وعفت المحكمة عن الجاسوس « وليم » مكافأةً له على إرشاد الشرطة إلى مخبأ اليهودى العجوز ، ثم انتظم في سلك الشرطة نخادماً أميناً للأمن والقانون. وقَسَا القدر على جميع من استخدمهم اليهودى العجوز في تنفيذ أغراضه، مِمَّنْ غفلت عنهم عينُ العدالة فكانت عاقبةُ أمرهم أوْخَمَ العواقب . أما الغلامان « جاك » و « شرلو » فقضيا فترةً من الزمن في سجن الأحداث ثم خرجا منه وقد استقرَّ في ذهنهما أن الحياة الحرة العاملة هي ما يرفعُ قَدْرَ الإنسان في أعين نفسه والناس . فجدَّ واجتهدا وكبرا في ظلال القضية والاستقامة والعمل الشريف .

واستنكرت إدارة الملاجئ ما قام به « بمبل » وزوجته فطرَّدا منه ، وقاسيا الهوان والذلَّ وشظفَ العيش سنوات طويلة ثم انتهى بهما الأمر إلى سكنى الملاجئ لاجئَيْنِ ذليلين بعد أن كانا فيه المدبَّرين صاحبي الأمر والنهى والسلطان .

واضطرب « مونك » أن يقدم إلى « أوليفر » نصيبه من ميراث أبيه ،
غير أن « أوليفر » أبغى له نصفه ليتمكن من العيش الحر السليم ،
ولا سيما أنه كان قد بدد نصيبه الخاص به ، فرحل إلى أمريكا محتفظاً باسم
« مونك » المستعار ، ولكنه عاد هناك إلى سيرته الشريرة ، فقضى نحبته
في أحد السجون .

وزُفَّت الآنسة « وردة » إلى الفتى « هنرى » ابن السيِّدة الوقور التي
ربتها وكفلتها ، فعاشا في ظلال تلك السيِّدة الكريمة عيشة هنيئة سعيدة
واختارا السكنى في « لندن » وكان طبيب الأسرة يزورهم حيناً بعد حين ،
ويقضى معهم سهرات جميلة . وكان سرورهم يبلغ منتهاه عندما ينضم
إليهم السيّد « براون » ومعه « أوليفر » الذي تبنّاه في غضون جميعاً ساعاتٍ
ممتعة تخفى هناعتهما ما في فؤاد كل منهم من ذكريات أليمة . . .
ونشأ « أوليفر » نشأةً صالحة ، وساعدته فضائله ومكارم أخلاقه
وطيب عنصره ، على أن يكون مثال الشباب العاملين الناجحين . . .